

الوزير عون الدين بن هبيرة 499-560هـ

كفاءة علمية وإدارية

أ.م.د. صالح رمضان حسن*

تاريخ القبول : 2010/1/7

تاريخ التقديم : 2009/11/18

المقدمة

من الصعب تجاهل دور بعض الأفراد في حياة مجتمعاتهم وأوطانهم من الذين توفرت فيهم روح الإخلاص والإرادة والاستعداد للتضحية في سبيل المبادئ التي يؤمنون بها مقرونة بقدر كافي من الكفاءة العلمية والحكمة إلى جانب صفات شخصية أخلاقية بناءة كالصدق والأمانة والتواضع والنزاهة

وأطلقاً من هذا المفهوم جاء اختيار البحث في سيرة الوزير عون الدين بن هبيرة 499-560هـ/1105-1164م ، الذي يعد من ابرز وزراء الخلافة العباسية خلال القرن السادس الهجري - على الأقل - ، لما أظهره من حنكة ومقدرة في إدارة شؤون العراق ومساندة الخلافة لاسترداد هيبتها، فضلا عن الإدارة الناجحة للصراع ضد التعسف ومساوئ النفوذ السلجوقي ، أكسبته الاحترام والتقدير من لدن الخاصة والعامة، وأشادت بدوره جميع المصادر التي تناولت جوانب من سيرته.

ومما شجعتني على أكتابه في هذا الموضوع ، أن هذه الشخصية لم تتل الاهتمام والدراسة من قبل الباحثين المحدثين، فجاءت هذه المحاولة لتسليط الضوء على جوانب من سيرته وإعطائها ما تستحق من الدراسة والبحث لأدائها المتميز في إدارة دفة الحكم في مختلف الميادين ومواقع المسؤولية في ظرف التحديات الصعبة التي كانت تواجه العراق والخلافة العباسية.

* معهد اعداد المعلمين/ تربية نينوى.

حسن

أقتصر البحث على تناول النشأة العلمية والفكرية للوزير عون الدين ابن هبيرة وأهم مآثره من مؤلفات وأثار تعكس المستوى الثقافي الذي كان يتمتع به، كما تطرق إلى الوظائف والمناصب الادارية التي تقلدها في أدوله ونهجه في إدارتها لاسيما عندما تسلّم موقع الوزارة، مع الأشارة إلى علاقته بالعلماء وعامة الناس، ثم وفاته سنة 560 هـ / 1164م، وما أثارته من ردود فعل عكست مدى تعلق الناس ومحبتهم له ، ثم مناقشة أسباب الوفاة.

عون الدين بن هبيرة

نسبه، لقبه، ولادته :-

بادئ ذي بدء ينبغي التعرف على شخصية عون الدين بن هبيرة من حيث نسبه ولقبه وولادته.

هو يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن حسن الشيباني . ويتدرج نسبه صعودا إلى نزار بن معد بن عدنان⁽¹⁾.

(1) العماد الأصفهاني : عماد الدين الكاتب، ت (597 هـ/ 1200 م)، ((خريدة القصر وجريدة العصر))، تحقيق محمد بهجت الأثري، د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، (بغداد _ 1955)، ق 1 ج 1/ 97؛ سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر، ت (654 هـ/ 1256 م)، ((مرآة الزمان في تاريخ الأعيان))، مطبعة دار المعارف العثمانية، (الهند _ 1951)، 8/ 256؛ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين، ت (681 هـ/ 1282 م)، ((وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان))، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت _ 1971)، 6/ 230؛ ابن رجب : زين الدين أبي الفرج، ت (795 هـ/ 1392 م)، ((ذيل طبقات الحنابلة))، مطبعة السنة المحمدية، (مصر _ 1952) 1/ 251.

ومن الملاحظ إن هناك اختلاف طفيف في ذكر بعض الأسماء المذكورة في تلك السلسلة، والراجع هو ماورد أعلاه⁽¹⁾.

ولعل التأكيد على نسبه وإبرازه جاء بعد تقلده منصب الوزارة⁽²⁾ لما له من أهمية بين أوساط عامة الناس لبيان اصل شخصيته وانتمائه العربي الأصيل. أما كنيته فهي أبو المظفر، واللقب الذي اشتهر به فهو (عون الدين)⁽³⁾، ولعل هذا اللقب أطلق عليه بعد توليه الوزارة لأنه كان يعرف قبلها ب: (جلال الدين)⁽⁴⁾ أيضاً.

ولد الوزير عون الدين بن هبيرة عام 499 هـ / 1105م في إحدى قرى الدور من أعمال الدجيل⁽⁵⁾⁽⁶⁾، ويحدد ابن خلكان أن محل ولادته بقوله: ((وهو من قرية من بلاد العراق، تعرف بقرية بني أوقر. . من أعمال الدجيل، وهي دور عرماينا [اوعرمايا]. . . وتعرف ألان [عصر المؤلف] بدور الوزير نسبه إليه،

(1) أورد ابن خلكان الاسم ب يحيى بن هبيرة بن سعد بن الحسين، المصدر السابق، وذكر ابن رجب اسم سعد بدل سعيد فقط المصدر السابق، بينما اتفق الآخرون _ لاسيما المعاصرون له _ على الاسم الوارد في المتن أعلاه، انظر العماد الأصفهاني، المصدر السابق؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق.

(2) العماد الأصفهاني: م. س، ق 1 ج 1/97؛ ابن خلكان: م. س، 6/233؛ سبط ابن الجوزي: م. س، 8/256؛ ابن ألفوطي: كمال الدين أبو الفضل، ت (723 هـ / 1323 م)، ((تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب))، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الفرات، (بغداد _ 1351 هـ)، ق 2 ج 4 / 988.

(3) سبط ابن الجوزي: م. س، 8/256؛ ابن خلكان: م. س، 6/230؛ ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي، ت (1089 هـ / 1678 م)، ((شذرات الذهب في أخبار من ذهب))، مطابع دار السراج، (بيروت _ د: ت)، 3 / 191.

(4) ابن خلكان: م. س، 6 / 233.

(5) الدجيل: اسم نهر يسقي كوره واسعة وبلاد كثيرة تقع شمال بغداد. ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله، ت (626 هـ / 1228 م)، ((معجم البلدان))، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت _ 1957)، 2 / 443.

(6) سبط ابن الجوزي: م. س، 8 / 256؛ ابن رجب: م. س، 1 / 251؛ .

حسن

وكان والده من أجدادها))⁽¹⁾، وكان يعرف نسبة إلى محل ولادته ب : (الشيباني الدوري)⁽²⁾ قبل توليه الوزارة بعد تغلب لقب عون الدين عليه.

رحلته إلى بغداد طلباً للعلم : -

يلاحظ أن علو همة عون الدين بن هبيرة واهتمامه المبكر بالتتبع والدراسة دفعته أن يغادر محيط قريته الضيق بعد أن استكمل دراسته الأولية فيها، التي لم تعد قادرة على تلبية و إشباع رغباته وتحقيق طموحاته العلمية، واخذ يتطلع نحو بغداد مدينة السلام دار العلم والعلماء، فشد الرحال إليها ودخلها وهو شاب في مقتبل العمر⁽³⁾ يفيض حيوية ونشاطاً، وهذا كان شأن معظم طلاب العلم البارزين منهم خاصة السفر طلباً للشيخ والعلماء المشهورين للتلمذ على أيديهم وهو من التقاليد المعروفة في المجتمع العربي الإسلامي آنذاك.

وما إن استقر به المقام في بغداد حتى اخذ يغشى مجالس الثقافة والفكر ويلازم مشاهير الشيوخ لتلقي العلم عنهم ويعمل في خدمتهم والتقرب إليهم لتحقيق غاياته، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن رجب في هذا المجال دليل على شدة شغفه، واهتمامه بالتحصيل الدراسي والتتبع، بقوله : ((وصحب أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد من حديثه، وكمل عليه فنوناً من العلوم الأدبية وغيرها، واخذ عنه التأله والعبادة وانتفع بصحبته، حتى أن الزبيدي كان يركب

(1) م. س، 6/ 230؛ وينظر الذهبي : شمس الدين أحمد : ت، (748 هـ / 1347 م)، (سير أعلام النبلاء))، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم، ط 11، مؤسسة الرسالة، بيروت _ (2001)، 20/ 426.

(2) ابن رجب : م. س، 1/ 251؛ ويذهب بعض المؤرخين إلى أن سنة ولادته كانت 470 هـ، وهذا رأي ضعيف ومخالف لجميع من كتب عن سيرته وتحديد سنة ولادته ب 499 هـ، للإطلاع على الرأي المخالف انظر : أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل، ت (732 هـ / 1331م)، ((المختصر في أحوال البشر))، المطبعة الحسينية، (مصر _ د : ت)، 42/3.

(3) ابن خلكان : م. س، 6/ 231؛ ابن رجب : م. س، 1/ 251.

جمالاً . . . فيطوف في أسواق بغداد، ويعظ الناس، وزمام جملة بيد أبي المظفر بن هبيرة وهو معتم بفوظة من قطن قد لواها تحت حنكه وعليه قميص قطن خام قصير الكم والذيل، وكلما وصل الزبيدي موضعاً أشار أبو المظفر بمسبحته ونادى برفيع صوته : لا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير))⁽¹⁾.

من الملاحظ أن الاهتمام بالتحصيل الدراسي لدى عون الدين بن هبيرة لم يقتصر على حقل واحد من حقول المعرفة- وهذا دأب الكثير من علماء عصره- بل عمل جاهداً للإلمام بعدة علوم - لاسيما الشرعية منها - وهذا تطلب منه المزيد من الدراسة والجد والسهر والانتقال بين مجالس العلماء والأدباء والمفكرين ((وحصل من كل فن طرفاً، وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقراءات والروايات، وقرأ النحو، واطلع على أيام العرب وأحوال الناس، ولازم الكتابة، وحفظ ألفاظ البلغاء وتعلم صناعة الإنشاء))⁽²⁾.

شيوخه وأساتذته : -

لاشك أن علو همة عون الدين بن هبيرة وسعيه الدؤوب وطموحه العلمي المتعدد الجوانب تطلب منه الانتقال من شيخ إلى آخر بعد أستكمال تحصيله، وهذا ماجعله يتتلمذ على يد العديد من علماء عصره المعروفين كلاً في حقل العلم الذي أشتهر به، ففي ميدان الأدب كان أستاذه أبو منصور الجواليقي، وفي علوم الدين والشريعة تفقه على يد أبي بكر الدينوري وأبي الحسن ابن الفراء، ((وقرأ القرآن بالروايات على جماعة، وسمع الحديث الكثير من جماعة منهم : القاضي أبو الحسين الفراء، وأبو الحسن ابن الزغواني، وعبد الوهاب الأنماطي، وأبو غالب بن البناء وأبو عثمان بن ملة، وأبن الحصين وغيرهم))⁽³⁾، وسمع الحديث النبوي الشريف ايضاً من ((أبي عثمان إسماعيل بن محمد بن قيلة الأصبهاني، ومن أبي

(1) م. س؛ وينظر ابن العماد : م. س، 3/ 192.

(2) ابن خلكان : م. س، 6/ 231؛ ابن رجب : م. س، 1/ 251.

(3) ابن رجب : م. ن، 1/ 251.

حسن

قاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب. . . وحدث عن الأمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين وعن غيرهم⁽¹⁾، فضلاً عما أخذه عن الشيخ أبو عبد الله بن يحيى الزبيدي من معارف الذي سبقت الإشارة إليه.

مؤلفاته العلمية وآثاره : -

بعد أن قضى عون الدين بن هبيرة معظم شبابه وشطراً من كهولته في التحصيل الدراسي، أصبح يمتلك أفقاً واسعاً في حقول المعرفة والعلوم التي حصل عليها، كان لها الأثر الواضح في صقل شخصيته الثقافية وتعدد مواهبه وعطائه الفكري الذي توزع على عدة ميادين خلفا العديد من الكتب والمؤلفات، فضلاً عن المحاضرات والدروس والأحاديث التي كان يلقاها في مجالس العلم والأدب بتنوع حقولها وأغراضها منها على سبيل المثال لا الحصر علوم القرآن والحديث والفقه والنحو واللغة والعروض⁽²⁾.

ومن أبرز نتاجاته الفكرية والعلمية مايلي :-

كتاب ((الإفصاح عن معاني الصحاح))

وهذا المؤلف الكبير أختص بدراسة الحديث النبوي الشريف وهو شرح لصحاحي البخاري ومسلم ((وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً))⁽³⁾ توسع في

(1) ابن خلكان : م. س، 6 / 231.

(2) ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج، ت (597 هـ / 1200 م)، ((المنتظم في تاريخ الملوك والأمم))، مطبعة دار المعارف العثمانية (حيدر أباد، الدكن، الهند _ د. ت)، 10 / 214؛ ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن، ت (874 هـ / 1469 م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (مصر _ د. ت)، 5 / 369 _ 370؛ ابن المستوفي : شرف الدين أبي البركات، ت (637 هـ / 1239 م)، ((تاريخ اربل))، المسمى نباهة البلد الخامل وما ورد ذكره من الأمثال، حققه وعلق عليه سامي بن السيد خميس الصقار، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، (بغداد 1980).

(3) ابن خلكان : م. س، 6 / 233.

بيان معنى الأحاديث وأحكامها وآراء الفقهاء حولها، ومثال ذلك ((لما بلغ إلى حديث : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))، شرح الحديث وتكلم على معنى الفقه، وال به الكلام إلى ذكر مسائل المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين))⁽¹⁾.

وقد حظي كتاب ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) بذيوع واشتهار بين أوساط العلماء لما له من أهمية وقيمة علمية كبيرة، ومن أجل إتمام الفائدة قام عون الدين بن هبيرة بكتابة شروح وتوضيحات لمؤلفه المذكور زيادة في دقة المعنى وإزالة اللبس والغموض وتبيان مواطن الشك والغموض، وقد جمعت هذه الشروح في مجلد خاص ((وقد أفرده الناس من الكتاب وجعلوه مجلدة مفردة وسموه كتاب الإفصاح وهو قطعة منه))⁽²⁾.

ومن أجل إعطاء صورة أوضح لقيمة هذا الكتاب وأهميته نشير إلى ما بذل في سبيل انجازه من جهد ومال وما تركه من صدى وقبول بين مختلف الأوساط، بعد أن تهيأت لمؤلفاته الإمكانيات المادية والمعنوية بعد تسلمه مقاليد الوزارة، ((وهذا الكتاب صنف في ولايته الوزارة واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب، وأوفدهم من البلدان إليه لأجله، بحيث أنه انفق على ذلك مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار، وحدث به واجتمع الخلق العظيم لسماعة عليه، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد [الخليفة العباسي] ⁽³⁾.

يلاحظ أن هذا الاهتمام والإقبال على كتاب ((الإفصاح)) لم يقتصر على بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأطرافها، بل تعداها إلى الأقاليم والبلدان الإسلامية الأخرى، وهذا يتضح من كثرة الطلب عليه ورواجه وانتشاره في تلك الأصقاع، ومما جاء في هذا المعنى ((ويعت ملوك الأطراف ووزراؤها وعلمائها واستنسخوا لهم به نسخا ونقلوها إليهم، حتى أن السلطان نور الدين [محمود بن زنكي] الشهيد،

(1) ابن رجب : م. س، 1/ 252.

(2) ابن رجب : م. ن، 1/ 252.

(3) ابن رجب : م. ن، 1/ 252؛ ابن العماد : م. س، 3/ 192.

حسن

واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم، يدرسون منه في المدارس والمساجد ويعيده المعيدون ويحفظ منه الفقهاء⁽¹⁾.

نستطيع أن نستنتج مما بذله عون الدين بن هبيرة من جهد كبير وما انفق من مال لإنجاز كتابه المذكور فضلاً عما حظي به من انتشار وقبول، انه كان يهدف إلى تحقيق غايات سامية باتجاه وحدة العقيدة والفكر للأمة، ونبذ الخلافات بين المذاهب الإسلامية وفقهائها لجمع أبناء الأمة العربية والإسلامية على صعيد واحد حكماً ومحكومين لمواجهة التحديات الخطيرة الداخلية والخارجية إبان القرن السادس الهجري التي كانت تعصف بالبلاد وتعبث بمقدراتها وتمزق صفوفها ولا يستبعد أن هذا المشروع الفكري لقي التأييد من قبل الخلافة العباسية وتشجيعها. ومن أثاره ومؤلفاته الأخرى كتاب ((المقتصد)) وهو كتاب في النحو⁽²⁾، وقد عرضه على أئمة الأدب في عصره ((وشرحه محمد بن الخشاب النحوي المشهور في أربع مجلدات شرحاً مستوفياً))⁽³⁾ وقد أعجب بهذا الكتاب ((وبالغ في الثناء عليه))⁽⁴⁾.

وفي مجال أركان العقيدة الإسلامية فقد صنف كتاباً عن ((العبادات الخمس على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وحدث به بحضرة العلماء من أئمة المذاهب))⁽⁵⁾.

ومن أثاره العلمية الأخرى قيامه باختصار كتاب ((أصلاح المنطق لأبي السكيت، وكان ابن الخشاب يستحسنه ويعظمه))⁽⁶⁾.

كما ألف عون الدين ((أرجوزة في المقصور والممدود، وأرجوزة في علم الخط وغير ذلك))⁽¹⁾.

(1) ابن رجب : م. ن، 252/1.

(2) ابن رجب : م. ن، 252/1.

(3) ابن خلكان : م. س، 233 / 6 _ 234.

(4) ابن رجب : م. س، 252/1.

(5) ابن خلكان : م. س، 234 / 6؛ ابن رجب : م. ن، 252/1.

(6) ابن خلكان : م. ن، 234/6؛ ابن رجب : م. ن، 252/1.

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان للمحاضرات والدروس التي ألقاها في مختلف المحافل والمدارس العلمية أهمية في أغناء المعرفة استفاد منها الكثير وأصبحت مصدراً للمعلومات اعتمد عليها معاصروه وجمعوها في كتاب، ومن أمثلة ذلك ما أشار إليه ابن رجب بقوله : ((وقد صنف ابن الجوزي كتاب (المقتبس من الفوائد العونية)، وذكر فيه الفوائد التي سمعها من الوزير عون الدين، وأشار فيه إلى مقاماته في العلوم وانتقى من زده كلامه في الإفصاح على الحديث كتاباً سماه (محض المحض))⁽²⁾.

كما يلاحظ لعون الدين بن هبيرة قريحة شعرية وإمام بقرض الشعر، وقد ترك قصائد جميلة وردت في مناسبات عديدة تعكس مضامينها جانباً من شخصيته ونظرته للحياة التي تتسم بالحكمة والتواضع والزهد، وقد أشار إلى ذلك ابن رجب بقوله : ((وله شعر كثير حسن في الزهد وغيره))⁽³⁾.

وفيما يلي أمثلة من شعره مما انشده ابن الجوزي عنه :

يأيها الناس إنني ناصح لكم	فعوا كلامي، فأني ذو تجاريب
لاتلهينكم الدنيا بزهرتها	فما تدوم على حسن ولا طيب

يلذ بهذا العيمن ليس يعقل	ويزهده فيه الألمعي المحصل
وما عجب نفس أن ترى الرأي إنما	العجيبة نفس مقتضى الرأي تفعل
فنفس في سهوها وهي تنقضي	وجسم الفتى في شغله وهو يعمل

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه	واراه أسهل ما عليك يضيع
---------------------------	-------------------------

(1) ابن خلكان : م. ن، 234/6؛ ابن رجب : م. ن، 252/1.

(2) م. ن، 1/253؛ اليافعي : أبو عبد الله محمد، ت (768 هـ/1366 م)، ((مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان))، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، (بيروت _ 1970)، 3/344 _ 346.

(3) م. س، 1/280.

الحمد لله هذا العين لا الأثر	فما الذي بإتباع الحق ينتظرُ
وقت يفوت وإشغال معوقة	وضعف عزم، ودار شأنها الغيرُ
والناس ركضاً إلى مهوى مصارعهم	وليس عندهم من ركضهم خبرُ
والجهل أصل فساد الناس كلهم	والجهل أصل يخلق عليه البشرُ
وإنما العلم عن ذي الرشد يطرحه	كما عن الطفل يوماً يطرح السرُّ
وأصعب الداء داء لا يحس به	كالدق يضعف حساً وهو يستعرُ

جسوم لا يلائمها البقاء	وأجزاء تخللها الثواء
وكون الشيء لا ينفك يفنى	فذلك أن غايته الفناء
ونجزع للشدائد وهي نصح	وتغرينا وقد عز الرجاء
تتافى الناس فانفقوا اضطراراً	وقد يرجى من الداء الدواء

كل من جاء بدين غريب	غير دين الإسلام فهو كذوب
وإذا عالم تكلف في القول	بلا سنة فذلك المريب

تمسك بتقوى الله فالمرء لا يبقَى	وكل امرئ ما قدمت يدها يلقى
ولا تظلمن الناس ما في يديهم	ولا تذكرن أفكا ولا تحسدن خلقا
تعود فعال الخير جمعاً فكلما	تعوده الإنسان صار له خلقاً ⁽¹⁾

الإعمال التي تولاهها قبل الوزارة : -

(1) ابن رجب : م. ن، 1/ 280 _ 282.

تبيين مما سبق ما كان يتمتع به عون الدين بن هبيرة من ثقافة وسعة اطلاع وكفاءة وسيرة حسنة مهدت الطريق أمامه لدخول دواوين الدولة، وكان انخراطه في الوظائف الحكومية فرصةً لاستثمار قدراته وتحقيق طموحاته لإصلاح أوضاع البلاد، فضلاً عما توفره من دخل ثابت يساعده على تنفيذ مشاريعه العلمية ويسد احتياجاته المعاشية لما كان يعاني من عوز وفقير حال⁽¹⁾.

وقد اخذ عون الدين بن هبيرة يتدرج في الوظائف الإدارية قبل توليه الوزارة، فتنقل بين عدة وظائف اثبت خلالها جدارة وإخلاصاً نالت رضا واستحسان الخليفة المقتفي لأمر الله 530-555 هـ / 1135-1160 م.

ومن الوظائف التي تولها الإشراف على المزارع فكانت ((أول ولايته الإشراف بالا قرحة⁽²⁾ الغربية، ثم نقل إلى الإشراف على الاقامات المخزنية))⁽³⁾، ولأمانته وإخلاصه عين بوظيفة الإشراف على المخزن وذلك عام 541 هـ / 1146 م⁽⁴⁾، ثم رُشح إلى منصب أعلى بعد ((عزل ابن مهدي عن كتابة الزمام وولي مكانه أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة))⁽⁵⁾ وذلك عام 542 هـ / 1147 م، ثم انتقل من هذه الوظيفة إلى موقع أعلى فتولى منصب صاحب الديوان⁽⁶⁾.

(1) ابن الجوزي : م. س، 10 / 214؛ سبط ابن الجوزي : م. س، 8 / 256.

(2) القزاح : المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر والجمع أقرحة، أنظر، الرازي : محمد بن أبي بكر، ت (666 هـ / 1267 م)، ((مختار الصحاح))، دار الكتاب العربي، (بيروت _ 1979)، ص 528.

(3) ابن خلكان : م. س، 6 / 231؛ ابن تغري بردي : م. س، 5 / 369.

(4) البنداري : الفتح بن علي بن محمد، ت (643 هـ / 1245 م)، ((تاريخ دولة آل سلجوق))، وهو اختصار كتاب نصره الفترة وعصره الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية للعماد الكاتب الأصفهاني، مطبعة الأفاق الجديدة، ط 2 ن (بيروت _ 1978)، ص 203.

(5) ابن الجوزي : م. س، 10 / 124؛ ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن، ت (630 هـ / 1232 م)، ((الكامل في التاريخ))، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت _ 1966)، 11 / 123.

(6) البنداري : م. س، ص 204.

تقلده الوزارة وأسبابها : -

يتضح مما سبق سرعة تدرج عون الدين بن هبيرة وصعوده في سلم الوظيفة، يدل على حسن أدائه ونزاهته، كما أن عمله في تلك المواقع أكسبته خبرة ومهارة لتسلم منصب أكثر أهمية، وبعد أن اثبت جدارة ونجاحاً لفتت أنظار الخليفة المقتدي لأمر الله فاستدعاه وقلده منصب الوزارة وذلك ((يوم الأربعاء الرابع أو الرابع عشر ربيع الأول سنة 544 هـ، فشرع في نصر أمر الشرع))⁽¹⁾

مما لا شك فيه أن اختياره لمنصب وزير الخلافة العباسية في تلك المرحلة الصعبة لم يكن محض صدفة أو تدرج وظيفي، بل جاء بعد تمحيص وتفكير من قبل الخليفة الذي كان يتابع _ على ما يبدو أخباره ونشاطه ويسمع ويرى كفاءته وأمانته وإخلاصه للخلافة وحرصه على خدمة الناس والبلاد، في الوقت الذي كان فيه المقتدي لأمر الله أحوج ما يكون إلى مساعد قوي وأمين يمثل تلك الصفات لينهض بإنقاذ العراق من تسلط حكام السلاجقة وفسادهم.

ومما يؤيد الاستنتاج الأخير ما ذكره ابن خلكان عن أسباب اختيار عون الدين بن هبيرة لمنصب الوزارة بقوله : ((وكان سبب توليته الوزارة ما حكاه الذي جمع سيرته انه قال : من جملة ما رفع قدر الوزير ونقله إلى الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شحنة بغداد نيابة عن السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه السلجوقي. . . . من سوء أدبه في الحضرة وخروجه على المعتاد الواجب، وانتشار مفسدي أصحابه، وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدين أبو القاسم علي بن صدفة. . . . وقد كتب عن الخليفة إلى السلطان مسعود عدة كتب يعتمد الإنكار على مسعود البلالي على ما صدر منه، فلم يرجع بجواب، فلما قلد عون

(1) البنداري : م. ن، ص 205؛ ابن الأثير : م. س، 11 / 146 ح ابن الفوطي : م. س، ق 2 ج 2 / 988، ويذهب آخرون أن ذلك كان يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر من السنة المذكورة، أنظر : أبو الفداء : م. س 3 / 22؛ ابن الوردي : الشيخ زين الدين عمر، ت (749 هـ / 1348 م)، ((تاريخ ابن الوردي))، المطبعة الحيديرية، (النجف _ 1969)، 2 / 70.

الدين بن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب الخليفة في مكاتبة السلطان بالقضية فوقع إليه. . . . فراجع عون الدين في ذلك سؤاله إلى أن أجيب. . . . وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في شهر ربيع الآخر، فما مضى على هذا إلا قليل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمسعود البلالي والإنكار لما اعتمده، فاستبشر المقتفي بإشارة عون الدين وعظم سروره بذلك، وحسن موقع عون الدين من قبله، ولم يزل عنده مكيئاً حتى استوزره))⁽¹⁾.

ومن جملة أسباب اختياره لمنصب الوزارة _ أيضاً _ رأيه السديد وموقفه الحازم عام 543 هـ / 1148 م حين تصدى لعبث أمراء السلاجقة واستهتارهم بمصالح البلاد والعباد، فأشاعوا الخراب والدمار في العراق لاسيما في المناطق التي حلوا فيها، وقد عجز وزير الخليفة (قوام الدين بن صدفة) عن معالجة الموقف ((فحينئذ استأذن عون الدين الخليفة في أمرهم، فأذن له في ذلك، فخاطب هؤلاء الخارجين عن الخلافة وأحسن التدبير في ذلك حتى كف شرهم، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم))⁽²⁾.

تبين مما تقدم أعلاه ذكر جانب من المواقف التي تظهر بجلاء مما كان يتمتع به عون الدين بن هبيرة من دهاء وحكمة وحزم رفعت منزلته عند الخليفة وأعلنت شأنه، ولذلك ((استدعاه المقتفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة إلى داره وقلده الوزارة وخلع عليه))⁽³⁾.

وقد أقيمت مراسيم متميزة وجرى احتفال مهيب بمناسبة تقلد عون الدين بن هبيرة لمنصب الوزارة، ((وخرج في أبهة عظيمة ومشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلهم بين يديه وهو راكب إلى الإيوان في الديوان، وحضر القراء والشعراء، وكان يوماً مشهوداً وقرئ عهده، وكان تقليداً عظيماً بولغ فيه بمدحه والثناء عليه إلى الغاية))⁽⁴⁾.

(1) م. س، 6/ 231 _ 232.

(2) ابن الأثير : م. س، 11/ 146؛ ابن خلكان : م. ن، 6/ 232.

(3) ابن رجب : م. س، 1/ 253

(4) ابن خلكان : م. س، 6/ 233؛ ابن العماد : م. س، 3/ 192 ابن رجب : م. ن، 253/1.

وبهذه المناسبة أعدق المقتفي لأمر الله على وزيره الجديد عدداً من الألقاب الرفيعة التي تنم عن مدى اعتزاز الخليفة به وتقدير مواهبه وكفاءته، دلالاتها في منحه صلاحيات واسعة في إدارة الدولة وهي توازي صلاحيات رئيس الوزراء في عصرنا الراهن تعكس مدى ثقته به وتقديراً لأمانته وإخلاصه، ومما جاء في هذا التكريم : ((وخطب فيه بالوزير العالم العادل عون الدين جلال الإسلام، صفي الإمام، شرف الأنام، معز الدولة، مجير الملة، عماد الأمة، مصطفى الخلافة، تاج الملوك والسلطين، صدر الشرق والغرب، سيد الوزراء، ظهير أمير المؤمنين))⁽¹⁾.

النفوس في لحظة من لحظات ضعفها فتصاب بالزهو والخيلاء، لم تؤثر قيد شعرة على ثوابت شخصيته التقيية الورعة، محافظاً على مبادئه وتوازنه وتواضعه في هذه المناسبة وما تلاها في حياته، لذلك نراه يعتذر عن لبس خلعة الحرير التي أمر الخليفة المقتفي لأمر الله بمنحه إياها عند أستيزاره⁽²⁾ كما اعتذر أن يلقب ب (سيد الوزراء) معللاً ذلك بقوله : ((لاتقولوا في ألقابي سيد الوزراء، فان الله تعالى سمي هارون وزيراً، وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن وزيره من أهل السماء : جبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض : أبوبكر وعمر، وجاء عنه انه قال : ((أن الله اختارني واختار لي أصحابا، فجعلهم وزراء وأنصارا))، ولا يصلح أن يقال عني أي سيد هؤلاء السادة))⁽³⁾.

سيرته في الوزارة وإدارة شؤون البلاد : -

أجتهد الوزير عون الدين بن هبيرة أن يقوم بواجبه خير قيام لإصلاح أوضاع العراق وشعبه ودعم سلطة الخلافة الشرعية رغم زحمة الأعباء وتعدد

(1) ابن العماد : م. ن، 3 / 193؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 253.

(2) ابن الجوزي : م. س، 10 / 214؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 253.

(3) ابن رجب : م. ن، 1 / 253.

المهام والمسؤوليات وجسامة التحديات التي كانت تنتظره، وفي مقدمتها التصدي لفساد وعبث ملوك السلاجقة وأعاونهم في العراق، وإعادة هيبة الخلافة العباسية لتمارس دورها الطبيعي في إدارة شؤون البلاد، ووضع حد لمراكز القوى والصراع على السلطة بين الفئات المتنافسة ووقف فسادها والدمار الذي ألحقته بالبلاد⁽¹⁾.

ورغم المهام الجسيمة الأنفة الذكر والتي أخذت حيزاً كبيراً من جهد ووقت وتفكير الوزير عون الدين إلا أن ذلك لم يشغله عن القيام بإصلاح أوضاع البلاد ورفع الظلم والمعاناة عن كاهل الناس، والعمل على إقرار العدل ومبدأ المساواة ونشر الأمن والطمأنينة بين أوساط الشعب الذي عانى كثيراً جراء الاضطرابات والقلق والتعسف والنهب والمصادرة في ظل الصراع وفوضى الإدارة السلجوقية، ((فكان يجتهد في إتباع الصواب ويحذر الظلم))⁽²⁾.

ومما يدل على حزمه وحرصه لتثبيت أسس العدالة وتوفير الأمن تأكيده على محاربة الفساد وردع الخارجين على القانون، ففي تعليماته لأحد مساعديه يوصيه بقوله : ((أجتهد أن تستر العصاة، فأن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأول الأمور ستر العيوب))⁽³⁾. فضلاً ما كان معروفاً عنه عند الشدائد في تطبيق القانون والتزام الشريعة الإسلامية ومنهج السلف الصالح⁽⁴⁾.

(1) أنظر للباحث : ((مقاومة الخلافة العباسية للنفوذ السلجوقي للعراق))، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى كلية الآداب/ جامعة الموصل، عام 1987. للاطلاع على الجهود التي بذلها الوزير عون الدين في التصدي لعبث أمراء السلاجقة وملوكهم ونوابهم بالعراق خلال هذه المرحلة، والدور السياسي والاقتصادي والعسكري الذي قام به، ونجاحه في إدارة الصراع ووضع حد للدمار الذي خلفه الطامعون ومحترفي أعمال السلب والنهب والخارجون على السلطة الشرعية للخلافة.

(2) ابن الجوزي : م. س، 10/ 214.

(3) أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت (665 هـ/ 1266 م)، ((الروضتين في إخبار الدولتين))، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة _ 1956)، 1/ 141.

(4) ابن الجوزي : م. س، 10/ 214؛ ابن المستوفي : م. س، 2/ 329.

وفي هذا المجال قدم ابن رجب وصفاً مختصراً لتلك الجهود التي بذلها عون الدين بن هبيرة ونتائجها الايجابية بعد توليه الوزارة نقلاً عن صاحب سيرته بقوله : ((فقام فيها قيام من عدله الزمان بثقافة وزينة الكمال بأوصافه، ودبرها بجوده ونهاه، وأورد الأمل فيها على ساقها، وأبتدع في انتظام ممالكها واتساقها، وأوضح رسمها وأثبت في حين أوانه وسمها، وتتبع ما أفسدته العين منها بالإصلاح، وأستدرك لها ما أخرجته لها يد الاجتياح، وداوى كل حال بدائه، ورد غائر الماء إلى لجاءه، وأقام الصلاة جماعة واقترض العدل لله سمعاً وطاعة، ورعى أهل الفضل والمعارف وآواهم إلى ظل وارف، حتى صارت دولته مشرعاً للكرم ومستراحاً لأمال الأمم))⁽¹⁾.

لاشك أن القيام بتلك الأعباء الكثيرة كانت تحتاج إلى جهود عدد من معاونين المخلصين، للنهوض بذلك المشروع الإصلاحي الذي قام به الوزير عون الدين، لذلك كان يدقق في اختيار أصحابه من ذوي الكفاءة والمقدرة الموصوفين بالأمانة والإخلاص فقرب إليه خيار الناس من علماء وفقهاء ومحدثين ورفع من مكانتهم وأكرمهم⁽²⁾، وعلى الأرجح كان هؤلاء من ضمن مستشاريه ومساعديه.

وبذلك سار الوزير عون الدين في الناس سيرة حسنة أعادت الأمن والاستقرار إلى البلاد وبثت الأمل والاستبشار في نفوس الناس وعززت ثقته بالمستقبل لما لمسوه من وزيرهم حرصه على تطبيق العدالة وسهره على مصالح الناس وأمنهم إلى جانب صفات أخلاقية سامية من أبرزها الصدق والأمانة والتواضع والحلم وسعة الصدر حتى مع الذين أساءوا إليه وكانوا يستحقون الجفاء منه لكنه سما بخلقه العربي الإسلامي الأصيل وأرتفع فوق نوازع النفس وقابل

(1) م. س، 1/ 253 _ 254.

(2) ابن رجب : م. ن، 1/ 254؛ ابن العمراني : محمد بن علي، ت (58 هـ / 1184 م)،

((الإنباء في تاريخ الخلفاء))، تحقيق د. قاسم السامرائي، مطبعة بريل (ليدن _ 1973)،

الإساءة بالإحسان وهو في موقع القوة تماشياً مع شيمة العفو عند المقدرة، وقد تجلى صفحه وحلمه في العديد من المواقف⁽¹⁾.

إلى جانب أعبائه الإدارية فقد أهتم برعاية الثقافة والعلوم والعمل على تشجيعها ونشرها، وخصص أوقاتاً معينة للقاء العلماء والمفكرين فقد بقي مواظباً على المجالس العلمية والمناظرات الفقهية التي كانت تعقد بانتظام ويشارك في النقاش وإبداء الرأي في مختلف المسائل كواحد من العلماء دون تمييز وكان يمتلك من الحلم وسعة الأفق واحترام الرأي الآخر حتى إذا كان خاطئاً وقد أبدى في هذا المجال ضروباً من التواضع وحسن الخلق أثارت إعجاب المحيطين به من المفكرين والعلماء⁽²⁾.

كما أعطى لدراسة الحديث النبوي الشريف اهتماماً خاصاً و ((كان يقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء، وكانت أمواله مبدولة لهم، ولتدبير الدولة، فكانت السنة تدور عليه، وعليه ديون، وقال ما وجبت علي زكاة قط))⁽³⁾.

ومن الشرائح الاجتماعية التي كان الوزير عون الدين بن هبيرة يحرص على إدامة التواصل معها والتعرف على أوضاعها ومشاكلها واحتياجاتها والعمل على أكرامها ومواساتها هم عامة الشعب من الفقراء، فقد خصص لهذا الغرض يوم الجمعة من كل أسبوع يستضيفهم في داره⁽⁴⁾ بعيداً عن الحواجز الرسمية التي قد تعيق بعضهم من الوصول إلى ديوان الوزارة، وكان في هذا اللقاء الأسبوعي مع الناس يكثر من إقامة الولائم وموائد الطعام لهم ((وكان إذا مد السماط أكثر ما يحضرها الفقراء والعميان))⁽⁵⁾، وكان الوزير في هذه المناسبات يتودد إلى ضيوفه

(1) للاطلاع على أمثلة من تلك المواقف أنظر : ابن الجوزي : م. س، 10 / 214 _ 215؛

ابن رجب : م. ن، 1 / 256 _ 257.

(2) لمزيد من الأمثلة والتفاصيل انظر : ابن الجوزي : م. ن، 10 / 215 _ 216؛ سبط ابن

الجوزي : م. س، 8 / 257؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 254 _ 255، 263؛ .

(3) ابن الجوزي : م. ن، 10 / 215؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 256.

(4) ابن الجوزي : م. ن، 10 / 215؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 255.

(5) سبط ابن الجوزي : م. س، 8 / 259؛ ابن العماد : م. س، 4 / 196.

حسن

من عامة الناس ويتواضع لهم ويستمع إلى مطالبهم ويعمل على أجابتها دون تأخير لاسيما الذين يقصدونه لأمر من أمورهم المشروعة، وهذا دليل واضح على حسن إدارته وسرعة تنفيذ مطالب الناس دون إبطاء وهو القائل : ((والله ما أهملت لأحد رقعه قط، ولا حاجة حضرنى ذكرها))⁽¹⁾.

منزلة الوزير ابن هبيرة ومكانته عند الخلفاء والناس :

يتضح مما سبق ما كان يتمتع به الوزير عون الدين بن هبيرة من صفات شخصية جمعت بين الحكمة والدهاء والحلم والحزم والإخلاص والتواضع إلى جانب إمكانياته الثقافية والفكرية مع استعداد عالي للتفاني في خدمة العباد والبلاد، كشفت عن مواهب متعددة أظهرت الإحداث والتجربة الميدانية مستوى الكفاءة الإدارية والسياسية والثقافية المتميزة التي نالت الكثير من الاستحسان والإعجاب لدى الشعب والخلفاء قلما حظي بها وزير عباسي من قبل.

ومن أجل أن نتعرف على منزلة عون الدين ودوره نورد بعض الأدلة والحقائق والشهادات والآراء والمشاعر التي تعبر عن مكانته منها استمراره في منصب الوزارة دون انقطاع منذ أن تولاها عام 544 هـ / 1149 م إلى أن توفي عام 560 هـ / 1164 م في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله (530-555 هـ / 1135-1160 م) وجانب من عهد الخليفة المستجد بالله (555-566 هـ / 1160-1170 م)، ((وعاش في وزارتي المقتفي والمستجد ستة عشر سنة وشهرين قرير العين أيد البيدين))⁽²⁾.

ومن شهادات المعاصرين له ومن جاء بعدهم من المؤرخين : أنه كان شديد الحرص على أتباع الحق وتحقيق العدل والمساواة، وألا خلاص في أداء

(1) ابن رجب : م. س، 1 / 262 _ 263.

(2) البنداري : م. س، ص 205؛ العماد الأصفهاني : م. س، ق 1 ج 1 / 97.

المسؤولية والخشية من الظلم⁽¹⁾، ((وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم))⁽²⁾،

((فسار في الوزارة أجمل سيرة))⁽³⁾، وقد انتظمت في عهده أمور الدولة والدين⁽⁴⁾.

ومما قيل في ذكر مكانته وصفاته أيضاً : ((كان شامة بين الوزراء لعدله ودينه وتواضعه ومعرفته))⁽⁵⁾، و ((كان عالماً فاضلاً عابداً عاملاً ذا رأي صائب وسريرة صالحه، وظهرت منه كفاية تامة وقيام بأعباء الملك حتى شكره العام والخاص، وكان مكرماً لأهل العلم، ويقراً عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره. وكان مقرباً لأهل العلم والدين طيب الخلق. . . كان ابن هبيرة عفيفاً في ولايته محموداً في وزارته كثير البر والمعروف وقراءة القرآن والصلاة والصيام))⁽⁶⁾.

ويصفه أحد المعاصرين له أيضاً بقوله : ((كان. . . يملأ العين والقلب، وكان كاتباً بليغاً فصيحاً عالماً بالنحو واللغة والفقه والأحاديث والقرآن العظيم المجيد وتفسيره، وصنف كتباً قي ذلك وكان حسن التدبير للأمور السياسية، محباً لأهل العلم كثير الميل إلى أهل الصلاح والتدين، ولو أخذت في ذكر مناقبه وحسن سيرته لجاءت مجلدات عظيمة، ولم أقدر أستقصى على بعضها ولم يسمع بأنه كان لبني العباس وزير مثله قبله ولا بعده رضي الله عنه وأرضاه))⁽⁷⁾.

(1) ابن الجوزي : م. س، 10 / 214.

(2) ابن تغري بردي : م. س، 5 / 369.

(3) ابن الجوزي : م. س؛ ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء، ت (747 هـ / 1372 م)، ((البداية والنهاية))، دار ابن كثير ن (بيروت _ 1966)، 12 / 250.

(4) البنداري : م. س، ص20.

(5) ابن العماد : م. س، 4 / 191.

(6) ابن رجب : م. س، 1 / 260.

(7) ابن العمراني : م. س، ص 225.

كما أشاد الخلفاء الذين عمل معهم بدوره ومكانته أيضاً وقد جاء في هذا المجال : ((وكان المقتفي معجباً به يقول ما وزر لبني العباس مثله، وكان المستنجد معجباً به⁽¹⁾، ومما رفع من منزلة عون الدين بن هبيرة عند الخلفاء ما كان يتصف به من الأمانة والصدق والشعور العالي بالمسؤولية، فضلاً عن صفاته الأخرى ومما جاء من أخباره أنه لم يكن يحابي أحداً حتى ولو كان من أقرب المقربين للخليفة، وهذا ما حصل مع المستنجد ولي العهد عندما رد طلبه⁽²⁾، ولما ولي المستنجد الخلافة دخل عليه فقال له : ((يكفي في أخلاصي أني ما حابيتك في زمن أبيك فقال له صدقت))⁽³⁾.

ومما يذكر في منزلة الوزير عون الدين عند المستنجد بالله ما نقل عن أحد المقربين من الخليفة قوله : ((سمعت المستنجد ينشد وزيره أبا المظفر بن هبيرة وقد مثل بين يدي السدة الشريفة في أثناء مفاوضات ترجع إلى تقرير قواعد الدين وإصلاح أمور المسلمين، وأنشده لنفسه مادحاً إياه قائلاً :

صفت نعمتان خصتاك وعمتا
بنشراً

وجودك والدنيا إليك فقيراً
وجودك والمعروف في الناس ينكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر
ويحيى لكفى عنه يحيى وجعفر
ولم أر من ينوي لك السوء يا أبا
المظفر إلا كنت أنت المظفر⁽⁴⁾.

كما يمكن أن نستدل على مكانة عون الدين بن هبيرة وسمعته الطيبة بين مختلف شرائح المجتمع من خلال ما عبرت عنه مشاعر الشعراء وأحاسيسهم التي

(1) ابن الجوزي : م. س، 10 / 214.

(2) لمعرفة المزيد من التفاصيل أنظر : ابن رجب : م. س، 1 / 259.

(3) ابن الجوزي : م. س، 10 / 214.

(4) ابن الجوزي : م. ن، 10 / 214؛ ابن واصل : جمال الدين محمد، ت (697 هـ / 1297

م)، ((مفرج الكرب في إخبار بني أيوب))، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة _ 1953)، 1 / 134؛ ابن كثير : م. س، 12 / 250.

تغنت بعدله وحزمه وكرمه وحسن إدارته لشؤون البلاد، وهم لسان حال الكثير من عامة الناس.

وقد مدحه الكثير من الشعراء، وأفاضوا في الثناء عليه، ((وقيل أنه رُزق من الشعراء ما لم يرزقه أحد، ومن أكابره الحيص بيص، وابن بختيار الأبله وابن ألتعاويذي، والعماد الكاتب، وأبو علي بن أبي قيراط، ومنصور النميري وخلق كثير حتى قيل أنه جمعت من مدائحه ما يزيد على مائتي ألف قصيدة في مجلدات))⁽¹⁾.

وفيما يلي بعض الأمثلة من القصائد التي قيلت في حقه منها : -

للعمد الأصفهاني

((ويحيى لحيى كل حق قضى وهل
وزيراً بأعباء الملك ناهض
مشنتت شمل للهى غير منغض
قضى غيركم ما كان للدين من قرض
أذا عجزت شم الرواسي عن النهض
وجامع شمالاً للعلى غير منقض))⁽²⁾

ومما قاله الحيص بيص في مدحه : -

يفل عزب الرزيا وهي باسلة
ويشهد الهول بساماً وقد دمعت
ويتقى مثل ما ترجى فوا ضله
سهل المكارم صعب في حفيظته
الملك يحيى لذي قولٍ ومعترك
يصيد وحش المعالي وهي نافرة
ويوسع الجار نصراً وهو مخذول
شوس العيون فذم القوم احفيل
وجوده فهو مرهوب ومأمول
فبأسه والندى مر ومعسول
إذا تشابه مقطوع ومفلول
كأن مسعاه للعلياء أحبول

ومما أنشده أبو الفتح بن الأديب في حقه : -

(1) العماد : م. س، ق 1 ج 1/ 98؛ ابن رجب : م. س، 1/ 283؛ ابن العماد : م. س، 4/ 196.

(2) العماد : م. ن، ق 1 ج 1/ 46.

أذا قلت ليث فهو أمضى عزيمة
من القوم ما ابقوا سوى حسن ذكرهم
وصية موروث إلى خير وارث
سحبيهم يحيى وما غاب غائب
ليهناً أمير المؤمنين أعتضاده
تمنى وزيراً صالحاً يكتفي به
وأن قلت غيث فهو أندى وأجودُ
وما عمروه بالجميل وشيدوا
أذا سيد منهم خلا قام سيدُ
إليه أحاديث المكارم تسندُ
برأيك والآراء تهدي وترشدُ
وأفكاره في مثله تترددُ

ومن قصيدة الشاعر أبو العلاء علي بن الفلاس قوله : -

ظلت الملوك وقصروا عن غاية
وعدلت حتى لم تدع من ظالم
فالأرض مشرقةً بعدلك والندى
ما نالها كسرى ولا سابورُ
يده عن المستضعفين تجورُ
وصباح عدلك ما له ديورُ

ومن شعر النميري قوله : -

أعلقت من يحيى رجائي لمن
وكان عون الدين أحرى الورى
وزير صدق عم أحسانه
أبهة الملك على وجهه
يرى على الغيث ندى كفه
تحتكم الآمال في وفره
بنصرة الحر على دهره
فأجمع الناس على شكره
وخشية الرحمن في سره
ونائل المرء على قدره⁽¹⁾

وتتجلى مكانة الوزير عون الدين في قلوب الناس ويظهر مدى تعلقهم به وحبهم له عند وفاته بأصدق دلالاتها، حيث تبدو الحقائق دون زيف أو نفاق، فعندما وافته المنية عام 560 هـ/ 1164 م ((وحملت جنازته يوم الأحد إلى جامع

(1) ابن رجب : م.س، 1/ 284 _ 285.

القصر وصلى عليه [الناس]، ثم حُمل إلى مدرسته التي أنشأها بباب البصرة فدفن بها، وغُلقت يومئذ أسواق بغداد وخرج جمع لم نره لمخلوق قط في الأسواق وعلى السطوح وشاطئ دجلة، وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البر ويظهره من العدل⁽¹⁾، ويؤكد آخر بقوله أيضاً : ((ولم يتخلف عن جنازته أحد))⁽²⁾ وقد رثاه العديد من الشعراء منها أبيات مختارة للشاعر النميري حيث قال : -

المم على جدث حوى تاج الملوك وقل : سلام
واعقر سويد الضمير فليس يقنعني السوام
فأن ارتوت تلك الجنادل من دموعك والرغام
فأقم صدور اليعملات فبعد يحيى لا مقام
ولقد عهدت أبا المظفر ذا علا لا يستضام
يثب القعود إذا بدا ويقبل الأرض القيام
وكان عون الدين لم يك للزمان به ابتسام
لله ما عدمت به الدنيا وما حوت الرجام
ما مت وحدك يوم مت وإنما مات الأنام
حياك رقرق النسيم وجاد مثواك الغمام
بأبي لك الإحسان أن أنساك والشيم الكرام
وببعض حقا أن حزني فيك ليس له انصرام

وأشده بعض الشعراء يوم موته :

مات يحيى ولم نجد بعد يحيى
وإذا مات من زمان كريم
ملكاً ماجداً به يستعان
مثل يحيى به يموت الزمان⁽³⁾

مناقشة سبب وفاته : -

(1) سبط ابن الجوزي : م. س، 8 / 260؛ ابن رجب : م. ن، 1 / 286.

(2) سبط ابن الجوزي : م. ن، 8 / 260؛ ابن خلكان : م. س، 6 / 241.

(3) ابن رجب : م. س، 1 / 286 _ 287.

يبدو أن وفاته لم تكن طبيعية وهذا أكدته العديد من المصادر سيما الوثيقة الصلة به والمعاصرة له، بل كانت بفعل فاعل وتدبير مدبر وهذا أمر مرجح وذلك أن حياة عون الدين بن هبيرة الحافلة بالنجاحات على مستوى المكانة العلمية وعلى مستوى إدارة شؤون العراق المتميزة، والتي أكسبته الاحترام والتقدير من لدن الخلفاء وعامة الناس، أثارت حفيظة بعض ضعاف النفوس من الحساد واللاهثين وراء المصالح الشخصية التي ألجمها عدل الوزير وحزمه، من الذين كانوا يتمنون أزاحته وزواله، وهذا مما يعزز ما أشارت إليه تلك المصادر، التي تفيد بأنه مات مسموماً، وفي مقدمتها ما ذكره الشيخ الأمام ابن الجوزي الذي كان معاصراً له ومقرباً منه، وقد قام بغسله بعد وفاته.

وفيما يلي مقتطفات مما ذكره ابن الجوزي :- ((وكان الوزير صحيحاً ليس به قلبية في يوم السبت ثاني عشر جماد الأولى من هذه السنة [560 هـ / 1164 م]، نام ليلة الأحد في عافية، فلما كان وقت السحر قاء فحضر طبيب كان يخدمه يقال له ابن رشاده فسقاه شيئاً فيقال انه سمه فمات. . . فحضرت فقال لي ولده لا بد أن تغسله فغسلته. . . ورأيت في وقت غسله أثراً بوجهه وجسده تدل على أنه مسموم))⁽¹⁾.

ومما يزيد من ترجيح موت الوزير مسموماً اعتراف ذلك الطبيب قبل وفاته وبيان ذلك : ((وسقي الطبيب بعده بنحو ستة أشهر سماً فكان يقول سقيتُ كما سقيتَ فمات))⁽²⁾، ومما يعزز الاعتقاد أن الأمر كان مدبراً ما تعرضت له أسرة الوزير عون الدين من انتقام وقسوة بعد وفاته، ((وقد اضطر ورثة الوزير ابن هبيرة إلى بيع ثيابهم وأثاثهم وبيعت كتب الوزير الموقوفة على مدرسته))⁽³⁾، ويبدو أن وراء هذا الإجراء الوزير الجديد ((أبو جعفر أحمد بن البلدي، فشرع قي تتبع بني

(1) الذهبي : م. س، 20 / 429؛ م. س، 10 / 216؛ الياضي : م. س، 3 / 344 _ 346؛

ابن رجب : م. ن، 1 / 285.

(2) ابن الجوزي : م. ن؛ الذهبي : م. ن؛ ابن رجب : م. ن؛ .

(3) الذهبي : م. ن، 20 / 431.

هبيرة، فقبض على ولدي عون الدين محمد وظفر ثم قتلها وجرى بلاء عظيم⁽¹⁾.

ولا يستبعد أن الجهة التي خططت للتخلص من الوزير عون الدين بالسّم هي نفسها التي قضت على الطبيب الذي سقاه للتعتيم على الجريمة وطمسها.

(1) الذهبي : م.ن، 431/20.

*The Scimtific and administriue Effeneiency of the
ministey Awn-el-Din Bin-Hubara (499-560 A.H.)*

Salih R.Hassan, Ph.D

Abstract

This study deals with aspects of scientific and administrative biography of the Abbasside minister Awn El Din Bin – Hobira 499H – 560H ‘such as : his kinship ‘ surname ‘birth ‘and the first environment where he grew up ‘ and what he had learned from basic sciences in his childhood and his youth.

The study also talks about a new phase in his scientific life when he decided to travel to Baghdad seeking for more knowledge and getting different types of sciences on the hands of more famous professors at that era ‘where he devoted most of his time and effort for this purpose until he could dominate on the head topics of many sciences such as : linguistic legality ‘literary etc ‘so he shifted to advanced stage by writing a lot of books in many fields of thought and knowledge which became stimulus of interest of the people at that time.

And for his scientific and ability fame he got many administrative positions in the palace of the Abbassian succession till he got the job of ministry at 544 A.H ‘taking on wide authorities for his loyalty ‘ability and honesty which pushed him to give the people and the country his maximum effort ‘reforming situations and fighting corruption ‘with keeping on the scientific abilities of the professors ‘teachers and scientists ‘besides being expansive to the people and especially the poor and mistreated and being close from them He was trying to be with them and solve their problems.

And according to the good biography ‘there was a wide positive impact among the private and the public increased

him respect and appreciation ‘so his death was like shock produced sadness and grieve for the loss which was expressed by many poets and especially the people of Baghdad ‘it was too rarely for a Minister to be appreciated like this before or

